

القضية الفلسطينية في شعر عبد الرحمن العشماوي

The Palestinian Issue in the Poetry of Abd al-Rahman al-Ashmawi

* لوانسة لبنى¹، أ.د. زرمان محمد²

Lounansa Loubna¹, Zermane Mohamed²

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة .

جامعة باتنة 1- الحاج لخضر (الجزائر)

University of Batna 1 Hadj Lakhdar (Algeria)

loubnalounansa@gmail.com¹ / zeroum59@gmail.com²

تاريخ النشر: 2021/12/25

تاريخ القبول: 2021/07/05

تاريخ الإرسال: 2020/11/09

ملخص البحث

القضية الفلسطينية هي عنوانٌ للثُمود والمقاومة ... التمرد والثورة، هي تجسيدٌ لكلّ متعلّقات الرّفص وزئير التّحرُّر النَّائر في وجه الاستيطان، بل في وجه العالم المستبدّ الخائن لقضية الإنسان وقضية الوطن، الهوية والعروبة. إنّها أرض الأنبياء مهد الرّسالات، فلسطين الأبيّة الجريحة.

وهذا ما تحدف له هذه الورقة البحثيّة، من خلال تتبّع القضية الفلسطينية وتجليّاتها في الشّعْر العربي المعاصر بعامّة، والشعر السّعودي بخاصّة، معتمدين على شعر عبد الرحمن العشماوي، وقد توصلنا من خلال مقارنتنا التّقديّة لأشعار العشماوي في دواوينه المختلفة اهتمامه الشّديد بالقضية وجهده في تلمّس حلّ قضاياها التي عبّر عنها بلغة شعرية جمعت بين الإبداع والموضوعية وجعلت من الالتزام مُحكّما لها .

الكلمات المفتاح: القضية الفلسطينية؛ الشعر العربي؛ الشعر السّعودي؛ عبد الرحمن العشماوي؛ الالتزام .

Abstract:

The Palestinian cause is the epitome of steadfastness and resistance ... rebellion and revolution, it is the embodiment of all the concerns of rejection and the rebellious roar of liberation in the face of settlement, but rather in the face of the tyrannical, traitorous world of the human cause and the cause of the homeland, identity and Arabism. It is the land of the prophets, the cradle of messages, proud and wounded Palestine.

This is what this research paper aims for, by tracing the Palestinian issue and its manifestations in contemporary Arab poetry in general, and Saudi poetry in particular, relying on the poetry of Abd al-Rahman al-Ashmawi. Which he

* لوانسة لبنى : loubnalounansa@gmail.com

expressed in a poetic language that combined creativity and objectivity and made the commitment tight to it.

Keywords: the Palestinian cause; Arabic poetry; Saudi poetry; Abdul Rahman Al-Ashmawi; Commitment



مقدمة:

تعدّ القضية الفلسطينية بكلّ متعلقاتها جرحا داميا لازال ينزف من جسد الأمة الإسلامية من خليجها لمحيطها، منذ 1948 (وعد بلفور) إلى يومنا هذا، وذلك لعوامل متعدّدة، أهمّها الابتعاد عن الهدف الحقيقي وهو إسترجاع الأرض وتحرير القضية وإتباع وهم الاتفاقيات والوشاح الخادع للمقاومة والوحدة، هذه العوامل وأخرى كانت إبتعادا لتحقيق عدالة القضية وإسترجاع الأرض والوطن.

وقد إتسع إدراك المفكرين والشعراء ممّن تفاعلوا مع القضية الفلسطينية، فحين عجزت مؤتمرات السّلام وجلسات حلّ القضية صرحت آهاتهم وتفجرت حواطهم فترجمت أقلامهم الحلول الجذرية التي بدأت بتعريّة الواقع المعيش، وهنا برزت أولى المؤلفات والدواوين الشعرية التي اهتمت بالقضية وعزّت الصّراع الفلسطينيّ العربيّ والفلسطيني الإسرائيليّ فمن كُتاب مأساة فلسطين وأثرها في الشعر المعاصر لصالح الأشتر (1961م)، إلى كتاب فلسطين والشعر لجميل بركات (1989م)، ومن الشعراء الأوائل الذين نطقوا بالقضية وروحها نجد محمود درويش، سميح القاسم، عز الدين المناصرة وهؤلاء هم أبناء القضية والأرض، ومن الشعراء من كان قوميا ناطقا بوعي الأمة وروح الانتماء بغض النظر عن البلد والوطن نجد نزار قبّاني، عمر أبو ريشة، إلى غير ذلك من الأسماء، كلّ هؤلاء تغنّوا بالقضية ومجّدوها ودافعوا عنها وناصروها.

إنّ الأدب السعودي لم يكن في منأى عن فلسطين وقضيتها العادلة، فقد حفّ شعره ونثره بالكثير من الأقلام التي حلّقت في سماء القضية لتشرب من عنفوانها وتأخذ منها العزّة والصمود، ويبدو هذا طبيعيا نظرا لسمة الالتزام التي يتّسم بها الشّعر السعودي في عديد القضايا والمحاور الكبرى التي تهمّ الأمة والإنسانية بشكل عام، ومن بين الأسماء البارزة نجد عبد الرحمن العشماوي الشاعر السعودي الذي خطّ لنا قصائد، بل دواوين تُعنى بالقضية الفلسطينية ومتعلقاتها؛ والتي تتمثّل في: فلسطين الوطن، الهوية، الطفل الثائر بيده حجارة وراية قضية وأمة، فتاة أم لأبطال قادة من أمثال الشيخ ياسين ومؤسّسي فتح وحماس وكلّ من تجمعهم راية الحرية فوق الأرض التي تعدّ مهد الرسالات فلسطين الأبية.

بناء على ماسبق؛ كيف تجلّت القضية الفلسطينية في أشعار العشماوي؟ وهل قدّمت أشعاره صورة واضحة عن الواقع المؤلم المعيش؟ وإلى أي مدى استطاعت أشعاره الإمام بأبعاد القضية؟ إضافة للالتزام الشاعر العشماوي، نراه يحاول الحفاظ على توازن الشاعر الملتزم المسلم الذي يرى أنّ علمانيّة الأدب مرفوضة في ميزان العقل السليم، كما أنّ التنكّر لذات الأديب وعواطفه مرفوض أيضا ويبقى بعد ذلك التوازن بين ذات الأديب المسلم وواقعه، وهذا ما يميّزه عن غيره.

فقد ارتبط إحساس الشاعر المسلم وأحداث أمته وقضاياها ارتباطا قويا وهذا ما عبر عنه العشماوي في أحد دواوينه بإشارته إلى الذين يظنون الشعر ذاتيا مسجوننا في عاطفة خاصّة لا يتجاوزها مخطئون، وهم في خطئهم كأولئك الذين يظنون الشعر كيانا مُفرّغا من عاطفة صاحبه وإحساسه .

من هنا كان المنطلق والمبدأ الأساس لدى "عبد الرحمن العشماوي" الأكاديمي السعودي والشاعر الرسالي الذي جعل من قلمه ترجمانا لخواطره ناقلا لرحامات تفكيره وتأملاته الوجدانية المتعلقة بموم الأمة الإسلامية وجراحاتها التي لا تزال تسخّ دموعا ودماء ودمارا هنا وهناك.

ولعلّ أهمّ قضية برزت في دواوين العشماوي هي شرف الأمة الإسلامية فلسطين الجريحة والقدس الشريف مهبط الرسالات وأرض المعراج

يقول العشماوي:

والقدس أرملة يلفعها الأسي	وئمت بهجة قلبها الأحزان
شلال أدمعها على دفتاته	ثار البخار فغامت الأجفان
حسناء صبّحها العدو بمدفع	تهوي على طلقاته الأركان ¹

لقد تبلورت صرخات الشاعر "عبد الرحمن العشماوي" وآماله تجاه القضية في دواوين عدة منها: القدس أنت، على قمم النصر، إلى أمّتي، يا أمة الإسلام، شموخ في زمن الانكسار، عندما يقنّ العفاف، جولة في عربات الحزن، كما نجد له قصائد تناولت القضية على جدارياته الالكترونية موزعة بين حسابيه في التويتز والفيس بوك وكذا مدونته الالكترونية وفي مواقع مختلفة منها حصص متلفزة موجودة في قنوات يوتيوب أو تسجيلات صوتية سجلها أو كانت مناسبات في نوادي وملتقيات وكذا محاضرات.

إنّ المتأمل فيما ذكر أعلاه يلمس جليّا اهتمام الشاعر بالقضية الفلسطينية وإيمانه العميق بانتصار القضية أمام الاحتلال الصهيوني؛ فقد حاول العشماوي تلمس كل جراح القضية بتنوع اهتماماتها وتوزع مشاكلها؛ فاهتمّ بالطفل الإنسان الثائر في وجه كل مُتصهين خائن لحقّ الطفولة في العيش بحريّة وسلم

وسلام، فالقارئ الفاحص لما كتبه العشماوي من قوافي الشعر سيلمس جليا معظم تجليات القضية الفلسطينية وأبعادها، والتي سنتبعا بعدها وسأحاول أن أكون قارئاً جادا لتلمس جلّ ما يرتبط بتجليات القضية الفلسطينية في دواوينه باعتبار أنّ عملية القراءة " ليست عملية سكنوية مغلقة، بل هي ديناميكية... وكل قراءة لاحقة هي إضاءة للقراءات السابقة"².

1- رمزية المكان، طهارة الأرض وقدسيتها الأقصى:

يُشكّل المكان أهمّ مستلزمات النصّ الإبداعي الموضوعاتية نظرا لما له من رمزية واختزال نصوص تخدم الفضاء الشعري بشكل عام، ويذهب "عبد الملك مرتاض" إلى ضرورة التمييز بين المجال والمكان والفضاء والحيّز فيقول "إنّا نميّز بين المجال، والمكان، والفضاء، والحيّز الذي آثرناه من بين المصطلحات كلّها للباقي... إنّ المكان يعني الجغرافيا وأنّ الفضاء يعني الأجواء العليا التي هي سيادة لأيّ بلد فيها والفضاء يعني الفراغ بالضرورة، أمّا المجال فقد يعني الحيّز الأعلى الذي يقوم فوق وطن ما والذي يكون في متناول الطيران... بينما الحيّز في تصورنا واستعمالنا الذي دأبنا عليه قادر على أن يشمل كل ذلك، حيث يكون اتجاهها وبعدها ومجالها وفضاء وجوا وفراغا وامتلاء"³، وإن كان هذا الطرح يتسم بالشرح والتحليل والتمييز اعتمد فيه عبد الملك مرتاض على تطورات الدلالة لكل مفردة في عصرنا الحاليّ، لذا نرى أنّ لفظة المكان أكثر رسوخا في الوعي الجمعي الأدبي الإبداعي مع أنّنا لسنا ضد التجديد والابتكار ومسيرة الحركة الإبداعية النقدية المستمرة في الزمن.

تعدّ فلسطين ووطنا لكلّ الفلسطينيين ومجالا وفضاء، وجغرافيا تضم أمكنة طاهرة مباركة أصبحت ذات دلالات رمزية إيجابية ارتبطت بالحرية والصمود والسلام، فصبى والأقصى وكنيسة القيامة ودير ياسين... إلخ أسماء أمكنة تجذّرت بل ارتبطت بروح المقاومة والصمود، روح الحب والسلام، حب البقاء واسترجاع السيادة والأحقية.

شمّلت القدس ما ذكرناه من معانٍ سابقة، لأنّها تعدّ رمزا دينيا في مختلف الأديان السماوية، كما أنّها تحتل مكانة راقية في الوعي الجمعي نظرا لمكانتها القدسية والتاريخية باعتبارها مهد البشرية ومهبط الرّسالات، كما أنّها الشغل الشاغل في أهم اللقاءات السياسيّة قديما أو حاليا، إضافة أنّها تعدّ من أهم رموز السيادة الفلسطينية وسفيرها رمزيا مكانيا للقضية المحورية - القضية الفلسطينية -.

يقصد بكلمة القدس لغويا البركة⁴، والطهارة، والمقدّس من لا ذنوب له، والقُدّوس من أسماء الله الحسنى، فالقدس مكان طاهر قدّسه الله تعالى وطهره وبها قضى الله أن يكون بها المسجد الأقصى

﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾
سورة الإسراء، (الآية 1) ، فقد حظي هذا المكان بالقدسية والطهارة والبركة والتشريف أن كانت أرض
المعراج إلى السموات العلى والرُّبِّيِّ إلى سِدْرَةِ المنتهى عند الخالق البارئ.

ولعلّ أيّ دارسٍ للقضية أو أيّ شاعرٍ متعايشٍ مع روح الكفاح والمقاومة، لا يجد نفسه في منأى عن
الحديث والبوح للقدس والتحدّث أحياناً بلسانها وجعلها قصّةً شعريةً تحفل بكلّ عناوين الحب والسلام
والكفاح والصمود، ولعلّ ديوان العشماوي "القدس أنت" خير ترجمان لما ذهبنا إليه.

لقد ألهمت القدس مشاعر "العشماوي" ليخاطبها خطاب القلب الجريح المحبّ قائلاً:

يا قدس يا حسناً طال فراقنا وتلاعبت بقلوبنا الأشجان

من أين نأتي والحواجر بيننا ضَعْفٌ وُفْرَةٌ أمةٌ وهوان؟

من أين نأتي، والعدوّ بخيله وبرجله، متحفّزٌ يقضان؟⁵

إنّ القدس في وجدان الشاعر حسناء أسيرة مُترَبِّصٌ بها من كل جانب، لا سبيل للقائها وهي جريحة

تبوح فتنشد:

لكأنتي بالقدس تسأل نفسها من أين هذا الهاطل الهتّان؟

من أين هذا البذل، ماهذا التدى يَهْمِي عليّ، ومن هم الأعوان؟

هذا سؤال القدس وهي جريحة تشكو، فكيف نُجيبُ ياسلمان؟⁶

تنتمي هذه المقطوعة لمطولة شعرية بلغت أبياتها اثنان وثمانون بيتاً اتخذت من التّون روياء لها ومن
الكامل إيقاعاً لها تعكس لنا انسجاماً حوارياً بين الشاعر كمحبّ مشتاق وحسناة جريحة تروم هدم
أصنام الاستعمار وكسر أغلال الظلم بعزّة وشموخ.

ياقدس وانشق الصّيباء وعَرَدت أطيّارها وتأنق البستان

ياقدس والتفتت إليّ وأقسمت وبرينا لا تحنث الأيمان

والله لن يجتاز بي بحر الأسى إلّا قلوبٌ زادها القرآن⁷

وحيث كانت القدس الجغرافيا والمكان نجد الأقصى يعيد رسم طريقه لكل متعبّد مجاهدٍ شهيد:

أيتها الأقصى أعربي أذنّاً حرّة تسمع أعلى خبير

إني أبصر كقفاً حملت درّة ليست كباقي الدر

وأرى في قبة المجد رؤى فارسٍ يُعلق باب الخور

وأرى ملحمة تصنعها
فرقة من جيشنا المنتصر
وأرى حطّين أخرى تتمت
بجبايا غدنا المنتظر
أيها الأقصى سيطوي فجرنا
ليل هذا الباطل المنتشر⁸

إنّ الأقصى وثبة الصخرة وحطّين والقدس رموزٌ روحانيةٌ مقدّسةٌ توحى بروح الملحمة والبطولة لطبي جراح الأمل وتبديد ظلام الباطل لنشر تباشير غد منتظر.

وعليه فللمكان شاعرية وجمال تبرز في روحه وآماله ومضامينه التي تختزل إجماعات مركّزة مكثّفة تجعله رمزا موحيا نظرا لأنّ له " عميق الأثر في الحياة البشرية إذ ما من حركة إلّا وهي مقترنة به وما من فعل إلّا وهو مستوح لبعض دوافعه منه، وهو أعمق وأكبر... ولعله ما من قرين للتجربة البشرية مثله، فهو عمادها ومطرحها ومغذيها، ومصبتها ومنطلقها وهو ترجمتها أيضا"⁹، فالمكان هنا لم يصبح مجرد جغرافية معلّمة أو مجالا يحدد فضاء دولة من أخرى بل تجاوز ذلك ليحكى قصّة امتدت لآلاف السنوات، قصة الروح المؤمنة المتعلقة بباريها المتشعبة بقيم البطولة والشهادة المحطّمة لأصنام العبودية الخائنة والموقظة لضمير الأمة الذي لا يزال نائما.

2- إستهجان السياسات الترقّيعية مع المستدمر وتعريّة الخيانة المتواطئة:

وجد "العشماوي" نفسه مسؤولا على تعرية السياسات الترقّيعية مع الكيان الصهيوني محاولا إثبات عدم فعالية هذه السياسات وأنّه لا جدوى من معاهدات السلام واتفاقياتها بل يرى أن ما أخذ بالباطل والبهتان لا بدّ أن يسترجع بالكفاح والمقاومة وما ضاع حق ورائه مطالب. فيقول:

دعاة السّلام بينون بيتا
ومحال أن يكمل البنيان
كيف تبني البيوت فوق رمال؟
كيف تبني وما لها أركان؟¹⁰

التأمل لهذه المقطوعة نجد ثنائيةً لفظيةً متضادة لا يقبلها عقل ومنطق وهي:

• البيوت.....القوة والمتانة

• رمال.....أساس رخو يهدّم ويحطم كل ما يؤسس عليه

أرايتم في الأرض آثار بين
ماله ساحة ولا جدران؟¹¹

يصف العشماوي كل محمول أو راكض وراء السياسات الترقّيعية أو واضع يده مصافحا لمن يدّعي السّلام وقلبه مفطور على الاحتلال و الاستدمار فيقول:

مالهم يركضون في كلّ صوب
دون وعي كأثمّ عميان؟

ياعيون السّادات نامي طويلا
فقد اجتاح قومنا الإذعان
ملّت الكأس شاريها، وألقى
سرجه الحرّ في الطريق الحصان
كلّ من سطرّوا كتاب التصدي
مسحوا أحرف الكتاب ولانوا
وطُبول الإعلام تُقرع فينا
كلّ يوم، كأئنا قطعان¹²

فالشاعر يجهر صراحة أنّ القضية باعها الضمير النائم الغافل، وتخلّت عنها الدول العربيّة تحت غطاء الاتفاقيات والمعاهدات التي تصدح بالسلام، وهنا نجد قصيدة له بعنوان: "وقفه على أبواب مدريد"¹³ والتي يُعزّي فيها الرّضوخ العربي الذي يبعث على الذلّ والهوان ويتحمّل فيها العشماوي تقديم الاعتذار بألم وعتاب وغضب، ومن هذه القصيدة نجده يقول:

صارت إليك وفود العرب، في فمها
بوّق، وبين يديها الطّبل رنّان
شامير يسخر منهم، من تطلّعهم
إلى السّراب، ألا فليروا ظمآن
ياؤسها أمة يسعى بحاجتها
لصنّ، وبائع أفيون، وسجّان
تُدعى إلى ملتقى باسم السّلام، ولم
يُرفع لها بين أهل الملتقى شان
ياؤسها أمة، في الحرب خاسرة
ولا يفارقها في السّلم خسران¹⁴

وهنا نلمس آلام العشماوي وكذا حسرته على التواطؤ والخذلان غير المقبول مطلقا والذي لا ينمّ عن روح الأُمّة الإسلاميّة العربيّة في حقيقتها، فيقول متألّما:

يرحل الشّعري إلى القدس، لكن
كسرت عند بابه الأوزان
آه يا قدسنا تنكّر قوم
وأباحوك للعدوّ وخانوا
صنعوا قهوة الخضوع، فلما
أتقنوها، تبرأ الفنجان¹⁵
إلى أن يقول:

بحرنا اليوم جتو من سراب
باع فيها حياته الظمآن
قلب مسرى نبينا يتلظى
وعلى وجهه يثور الدخان
وبعينه أدمع لا تسلي
عندها كيف يصنع الفيضان¹⁶

3- المرأة الفلسطينيّة الحرّة:

المرأة في الإسلام تقف على قدم المساواة في تحمّل المسؤولية جنبا إلى جنب مع توأمها الرجل، الكلّ تناط له مسؤوليات وعلى قدر المسؤولية يعلو شأن حاملها، والمرأة هي حواء كما عبّر عنها العشماوي بأحرفه منشدا:

حواء في حياة آدم

تعني العطاء..

وما أعظم كلمة العطاء...

حواء تعني الأمومة..

وما أعظم كلمة الأمومة...

حواء تعني السكن.. والمودة.. والرّحمة

حواء عالم له كيانه الخاص..

وعطاؤها يظل عظيما¹⁷

من هذا المنطلق نجد العشماوي منصفا في تقدير المرأة الفلسطينية الأبية في أشعاره ودواوينه، ليعدّد مآثرها البطولية وخصالها المستمدّة من وحي المرأة المسلمة المؤمنة التقيّة التي لا ترسخ لظالم ولا تركع لمستبدّ.

نجده بداية يوجّه تحية احترام وإجلال لخرائر فلسطين اللاتي أرضعن الصمود والحرية وحبّ الشّهادة لأبنائها لتحيا فلسطين وتعانق سمائها تسيّحات الأقصى وترنيمات كنائسها فيصدق معرّدا:

حيّ النساء فقد مسحن العارا وهطلن غيث بطولة مدرارا

حيّ النساء وقفن رمز بطولة وغدون في ليل الخضوع منارا¹⁸

إنّ المرأة الفلسطينية لدى العشماوي ليست راضخة منكسرة الهمة باكية قابعة مستسلمة؛ بل هي المنارة التي تُنير دُروب الوطن بتجلياته وتُنير سبل البطولة لأبنائها وتكسر سيوف التجرّ في وجه المتصيهن لتزبل آثار الاستسلام فتنشئ بذلك جيلا مقاوما طامحا في معانقة الحياة، فهنّ حين لمسن الرّضوخ والاستسلام أصبحن كاسرات للعدوّ، محطّات للقيود فيقول العشماوي:

لما رأين المعتدين تجاوزوا كل الحدود وحطّموا الأسوارا

ورأين سيف الغدر يحدد جهرة أبنائهنّ ويمسح الآثارا

ورأين أنصاف الرجال توقّفوا فخيولهم لا تعرف المضمارا

ورأين أمتهنّ تفتح بابها
أسرجن من خيل الشموخ أعزها
ماسرن سير المستكين، وإتّما
يحمين أشبال العقيدة حينما
طيرن في الآفاق صقر كرامة
واجهن طاغية الزّمان بمّمة
متحجّبات سرن في ألق الضّحى
فغدون في وضح النهار نهارا²⁰

إنّ القارئ لهذه القصيدة المدقّق لمعانيها وإيجاءاتها سيرى قوّة المرأة الفلسطينية التي حُقّق لها أن تكون

عنوانا للقضيّة؛ ويظهر ذلك بصورة واضحة من خلال تتبع بعض مفرداتها.

الحرية ← لما رأين / أسرجن / طيرن / ملأن.

رفض الظلم ← واجهن / يواجه الأخطارا.

العزة والإباء ← واجهن / نهارا / يحمين أشبال.

منبع المقاومة ← واجهن / همّة / ملأن.

الوقار ← متحجّبات / عزة / فخارا .

وغيرها كثير من المفردات التي لم نحصها نظرا لأننا بتنا من القصيدة أبياتا.

مما ذكرناه، نسجلّ حضور المرأة القوي في الشعر السّعودي عامّة وعند العشماوي خاصة، لتُجسّد في شعره حضورا وُجدانيا مرتبّطا بالواقع العلائقي مع المرأة بشكل عام (الأمّ، الزوجة، البنت، الصّامدة والمكافحة) وحضورا رمزيا ينمّ عن التكامل والتّناغم في روح الحوار الشعري .

4- رموز المقاومة والإباء:

الملاحظ على العشماوي أنّه لم يختصر القضيّة الفلسطينيّة في رمز واحد ذي نوع محدّد، والقارئ المتفحّص يجد الرموز تعدّدت وتنوّعت بين رموز وطنيّة وسياسيّة ورموز طبيعيّة متعلّقة بالأرض والأماكن المقدّسة في الأرض الطيبة على اعتبار أن بنية الرمز تملك طاقة تصويرية في الشعر المعاصر أكثر من الصور التقليدية من مرجع معين إلّا أنّنا سنركز على الشّخص الرّمزي للمقاومة ذلك أنّنا تطرقنا للرموز الطبيعيّة المكانية في عناوين فرعية لهذه الدّراسة، وقد وجدنا حين تتبعنا للدواوين المختلفة الشّخص الآتية:

4-1- القائد المرجعية - أحمد ياسين_ :

إيه ياعسقلان، أحمد قلبٌ صامد ورأي سديد²¹

يبرز العشماوي أهمّ سمات الشيخ ياسين في دالية مطلقة يُحَيِّم عليها الوُدّ والاحترام، الإجلال والإكبار للشيخ، ويستنطق العشماوي الرمز الشَّهيد ليأخذ أبناء المقاومة من الأنموذج الثَّوَدَة أسرار الفلاح والتَّجَاح والوقوف في وجه الطَّغاة.

أيتها الشيخ ما لعينك تهمي؟ ولماذا يطول منك الشُّرود؟

جالسٌ أنت والطَّغاة وقوفٌ وحواليك قد أقيم الجنودُ

أنا ياشيخ ما رأيتك إلَّا داعيا من دعائه يستريد

كلهم خائفون منك لماذا أخاف القعيدَ جيشٌ عتيد؟²²

إنَّها صورةٌ وصفيةٌ تساؤليةٌ والتي منبعها الوقار الذي يشعُّ من الشيخ الرمز المخيف أعداءه رغم الشُّرود والجلوس.

بعد هذا التساؤل التعجبي الذي يبرز عظمة وقوة الشيخ الرمز، وبعد إلحاح من الشاعر المعجب

المتسائل يجيب الشيخ الرمز أحمد ياسين ليُفصح عن سرّه:

أيتها السائل الملح لأتي لائد بالذي إليه تعود

خافني المعتدي، وإلَّا فلبي أيتها السائل الملح قعيد

أي نفع للجسم والقلب خاوي؟ أي نفع للجسم، وهو بليد؟

شللي لم يصب من الرّوح شيئا وبروحي أطيّر حيث أريد²³

وحيث تأمّلنا لهذه القصيدة المطوّلة ومحاولتنا التدقيق في معانيها توصلنا إلى بعضٍ من أسرار الشيخ

الرمز وهي كالآتي:

- العبودية لله الواحد الفرد الصمد.
- التعلّق بالله واللّجوء إليه أساس الإيمان ومواجهة العدو، فكلّ القوة والمجاهمة مستمدة من الجبار الذي لا يقهر الحي القيوم.
- ما الجسد إلَّا وعاء وقبضة من طين.
- العزم والشدّة والاعتماد على قوّة العقل ونبض الرّوح.
- الإيمان بعدالة القضية سبيل لجعل العدو يركع ويرسخ.
- الجهاد والدفاع عن القضية سبيل للروح لمعانقة الشهادة والفوز برضوان الله عزّ وعلا.

● إعلاء كلمة الحق في الحياة الدنيا رسالة من رسائل الشيخ الرمز في الحياة.

و يختتم الشاعر بأبيات ثلاث وكأثما خلاصة وزبدة الحوار مع الشيخ الرمز البطل؛ فيقول:

يا بن ياسين، لا عدمنك شهما عن حمى قدسنا الشريف تذود

عش كريما، فإن تمّت فرجائي أن تقول الأجداد: هذا الشهيد

قد يُسام التقي في الأرض خسفا وعلى الله نصره الموعود²⁴

هذه واحدة من قصائد العشماوي التي تناول فيها الشخّصيّة الرّمز محاولا إسقاطها على واقع القضية الفلسطينية وجعل الشخّصيّة الرّمز مركز قوة وإيحاء بكل ما يزيد في إذكاء المقاومة في روح كلّ حرّ باسل مقاوم غير راضخ، فهي بذلك إبراز لأحد منابع القضية التي يرتوي منها أحفاد وأبطال القضية العادلة.

4-2- الطفل الفلسطيني المقاوم:

إنّ شرارة النصر القادم والحريّة المسترجعة لا بدّ لها من انطلاقة وشرارتها الأولى متجدّرة في الوعي الجمعي للشعب الفلسطيني الذي يرضع منه الجيل الفلسطيني القادم المتمثل في الطفل الفلسطيني الرجل والطفلة الفلسطينية الأبية الحرة، ونظرا لهذه الجرأة المتجدّرة في النشء الفلسطيني نرى أنّ العشماوي لم يُغفل ذكر الطفل الفلسطيني المقاوم، فنجدّه قد عكس اهتمامه بهذه الشريحة الصامدة المواجهة في أشعاره ودواوينه الكثيرة، منها ديوان على قمم النصر .

يتحدّث العشماوي على لسان طفل فلسطيني ثائر مقاوم متشبع بقيم رموز مقاومته:

فكّوا الحصار وحطّموا الأغلالا أو ما ترون القتل والأهوالا؟

أو ما ترون الليل أسود فاحما يُهدّي لغرّة حسرة ووبالا؟

أوما ترون الغاصبين تأوّلوا حتى رأوا قتل البريء حلالا؟²⁵

هذا الأبيات _ وإن كانت للشاعر _ تترجم وعي الطفل المقاوم في لحظة عتاب ولوم، فهو يعي القهر والقيود والحصار؛ فمرارة أن يرى الخيانة والتواطؤ التي عبّر عنها بطريقة غير مباشرة (فكّوا ...، حطّموا...) ، أمّا قوة العتاب اللوم مجلّيتها مفردة واحدة (أو ما ترون) تكرّرت ثلاث مرات هنا وفي أبيات أخرى من القصيدة _ لم نذكرها _ ونرى أنّ لهذا التكرار دور في تثبيت العتاب واللوم وتأكيد الرفض التام للخضوع والخنوع وكلّ أشكال الصمت والتواطؤ الخفي الخبيث الذي يتجمه هذا الطفل الصارخ بقوله:

مالي أراكم صامتين وحولكم رجي العدوّ يحطّم الآمالا؟

فكأنكم تترقبون عدونا ليذيقكم بعد النكال نكالا؟

وكأنكم لا تبصرون قتاله أو أتكم لا تفهمون قتالا؟

إنّا لنطلبكم مواقف شيمة أمّا النزالُ فلا تُريد نزالاً²⁶

ظاهرة التكرار هنا تعدّ تقنية أسلوبية تجلّت فيها " حركة تمتاز بالعدوية والاستحباب وهذا ما يجعله يمتاز بالفنية والجمالية المطلقة، إذ يتجاوز البنية اللفظية إلى إنتاج فوائد ومرامي جديدة داخل أتون العمل الفني فيحدث موسيقى بواسطة استحداث عناصر متماثلة ومواضع مختلفة من العمل الفني كما يعدّ التكرار مركز الإيقاع بجميع صورته ويعمل على توطيده وتمكينه من معمارها فنجد ماثلا في الموسيقى يدعم تواترها وحركتها الانسيابية"²⁷.

إنّ لغة الأبيات تتسم بتدفق موسيقى ساهمت الانفعالات الوجدانية والتي تُرجمت في قالب تساؤلي استفهامي تعجبي، فعكس هذا صدق العاطفة وجمال الصورة، وقد تكاملت هذه الجوانب لتجعل القارئ يفكك شفرات القصيدة ليصل إلى صورة الطفل الفلسطيني الواعي، البطل، المتشبع بقيم الوطنية والهوية الإسلامية الرافضة لكل أشكال الاستعباد الصهيوني التي تحرم الفرد من حرّيته التي حباها به الله سبحانه وتعالى وهنا يحضرنى قول عمر " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا".

بعد استقراءنا للقصيدة السابقة، نجد نصوصا أخرى تجعلنا نلمس _ بصدق _ المكانة الراقية التي يوليها العشماوي للطفل الفلسطيني فهو بمدحه لهذا الطفل يتقرّب لله سبحانه وتعالى بقوله الصريح " اللهم إني أتقرب بمدح هذا الطفل البطل الصّغير إليك"²⁸ حيث يقول في مطلعها:

أدهش الليل سرى من تحقرون
فمضى حرّاً وأنتم قاعدون
أنطقت همته صمت الدّجى
فروى عنه حديثا ذا شجون
ومن الصّمت لسان ناطق
عاجز عن فهمه من لا يعون

إلى أن يقول:

هل رأيت أعينكم جبهته
أرأيتم كيف يسمو الصّامدون؟
لا تقولوا: هو طفل، إنّه
رجلٌ يفهم مالا تفهمون
هو لا يغفل عن واجبه
لحظة لما رآكم تغفلون

لقد رأيت أن أدرج بعض أبيات هذه التّونية المطوّلة التي بلغت ستّا وأربعين بيتا نظرا لكونها تقدّم للقارئ صورة شعرية متكاملة تجلّت فيها عناصرها من لون وحركة (يسمو، مضى حرّاً...) ممزوجة بموسيقى وإيقاع شعري متناغم مظهرها ومخبرها، فانصهرت المشاعر و خواطر التّأثر والانبهار من دروس

البطولة والشّهامة التي لازال الطّفّل الفلسطيني يقدّمها، ولعلّ الغاية الخفيّة وراء نظم هذه القصيدة هي التي جعلتها تتجلّى في هذا الشكل المتناغم شكلا ومعنى.

5- التّشديد بالتواطؤ العربي والسياسات التّرفيعيّة:

لم ينأ العشماوي بنفسه عن السّاحة السياسيّة وما يحدث فيها حول الشّأن الفلسطيني، بل عدّ نفسه ملاحظا ومشاركا فعّالا من خلال تتبّع كلّ المناسبات سواء ما أبدته المملكة العربيّة السعوديّة اتّجاه القضية، أو ما كان يحدث تحت قبة الجامعة العربيّة أو هيئة الأمم المتّحدة، وكذا المؤتمرات العالميّة التي تُعقد هنا وهناك حول القضيّة.

بناء عليه؛ نلمس العفوية والجرأة المتواضعة أحيانا في شخص العشماوي حيث يقول:

أعطت زمام أمورها غاويها	أتى تنال العزّ أمتنا إذا
أحشى على الأسرار أن تفشيها	قف أيّها القلم الجريح فإنني
فليبدئها أثر على تاليها	إنّ القصيدة حين ترسم خاطري
أنا كاتب ومشاعري تُملئها ²⁹	هي صورة لخواطر فيأضه

فالعشماوي هنا؛ نجده بدافعية الالتزام التي يتصّف بها وكذا بفضل الوعي الذي وصل إليه قد أطلق العنان لخواطره والحرية لقلمه حتى وإن لم يسعفه الشعر في احتواء كل ما يجول بخاطره الفيّاض ومشاعره المتدفّقة، وعليه يمكن تتبع آراء الشّاعر في خطابه الشعريّ التي تراوحت بين المدح والاعتزاز والفخر من جهة، كما تراوحت آراؤه السياسيّة بين السّخط وإعلان استهجانته لما أبانته بعض السياسات التّرفيعيّة، كما شجب الصمت العربيّ والعالميّ وتجاهل القضيّة رغم عدالتها إنسانيا وقداستها دينيا بسبب ارتباطها الوثيق بالوعي الجمعيّ للأمة الإسلاميّة، فيصرّح العشماوي قائلا: "أمّتي مسرّح لأحداث مؤلمة، وهدف لأعداء يتكالبون عليها من كلّ مكان، أمّتي مطعونّة بسهام كثيرة، وهيّ تحاول جاهدة أن تنتزع من جسدها الجريح تلك السّهام لتردّها قويّة إلى صدور أعدائها المسيطرين، وبعض أبنائها الغادرين .

أفلا يحقّ لي بعد ذلك، أن أنصه في أعماقها، وتنصهر في أعماقي وأن تخرج بذلك قصائدي، وقد امتزج أحساس أمّتي فيها بإحساسي³⁰

ويتجلّى كل ما سبق في عديد القصائد التي وجدناها موزّعة على دواوين منوّعة، ومثالّ عنها أنينه الصّارخ الصّامت حين يقول:

كيف ألقاك باسماء؟ وجراحي
وقفت دون تغرك البسام

كيف تنمو زهور قلبي؟ ودمعي
كيف أرضى بالذلّ مادمت حيّا
أنت جزءٌ من الفؤاد فأولى
قطرات من اللّهب الحامي
نابضا بالهدى وبالإلهام
أن تهزّي اليقين في إلهامي

فهنا تصريح وجهر أنّ السعادة وإن أخذت تسكن القلب إلا أنّ العقل والروح سيفضحان ذلك
فالأقصى جريح وفلسطين باكيّة والسلام أكذوبة، يقول العشماوي:

أكذوبة السلم التي خدعوا بها
عجبا أيرمي السلم من أعدائه
يا هيئة الأمم التي وقفت على
بنيت على جرف الهوى فبناؤها
قومي باللسنة المدافع تهدر
وتصافح الكفّ التي لا تطهر
جسر المذابح بالتجاهل تسكر
متصدّع، ويسيرها متعسر³¹

نلمس هنا إخلاص الشّاعر وتمسّكه بالمبادئ الإسلامية وأصالته الصادقة على أن عملية السلام
والصلح مع الكيان الإسرائيلي تحت قبة هيئة الأمم المتحدة ليست من صالح الأمة وأنها تعتبر خطة يبيح
خيوطها أعداء الإسلام والأمة من أجل سفك المزيد من الأرواح وتجاهل القضية.

ورغم هذه الآلام وهذا الاستصراخ والاستجداء، إلا أنّ السعادة والفرحة العارمة تزور الشّاعر فرحا
بقدم أبناء القضية إلى المملكة العربيّة السّعودية وكأنّه ينتشي شرفا بتقدّم المساعدة لهم بقوله:

مرحبا ألفا بأبطال صغار
هذه الأوسمة العظمى عليكم
من فلسطين الجهاد الحرّ جئتم
مرحبا جئتم شموخا وصعودا
أرسل المجدّ بهم فينا بريده
صورة للوثبة الكبرى المجيدة
أنفسا مشقّة الرّوح سعيدة
في مدار نسي التّاس صعوده³²

وإن كانت القصيدة في أبياتها الخامسة والأربعين تبدو مكثّفة في معانيها الممزوجة بالطرب والحزّن
الخفّي الأليم، إلا أنّنا نجد أنفسنا أمام تباين في المعنى وضعنا الشّاعر أمامه، ففي حين وصف الأبطال
بالشّموخ والعظمة والبسالة إلا أنّه يصف هؤلاء الأبطال الجرحى الوافدين على المملكة بالصغار، وهنا قد
لمسنا بعض التناقض - كأنّه يناقض نفسه - وقد تُقبل هذه اللفظة إن كان القصد منها صغار السنّ، وإن
كان غير ذلك فإننا لا نجد له موقعا حسنا تطرب له النفس وتألّفه عند قراءة النّص كاملا.

خاتمة:

مما سبق؛ فإنّ القضية الفلسطينية كانت حاضرة بكل تفاصيلها ومتعلقاتها في شعر العشماوي الذي يعدّ واحدا من نماذج الشعر السعودي الملتزم ذي الاتجاه الإسلامي والذي يُعنى بقضايا الأمة ورهاناتها، ولعلّ تركيزنا على الجانب التطبيقي في دراسة نماذج شعرية جعلنا نصل إلى أنّ الشاعر حاول إبراز مدى معاشة الشاعر العربي المعاصر للقضية الفلسطينية فتناول متعلقات القضية فنجده قد تطرق إلى المرأة الفلسطينية بمنزلها المختلفة في المجتمع الفلسطيني، وقد تجسّدت الرموز الفلسطينية في شخصيات قيادية أبرزها الشيخ ياسين والطفل الفلسطيني، ومّا توصلنا إليه أنّ العشماوي لم يجد في نفسه حرجا من إعلان موقفه من السياسات الترقّيعية فوجدناه في مواقف تحليلية أعلاه مُعربا عن رأيه بصراحة وقد يكون هذا بدافع الالتزام كقيمة مرجعية معتمدة لديه؛ وهنا يمكننا إيجاز نتائج البحث فيما يلي:

- يعدّ العشماوي شاعرا مجيدا، قلمه ينبض بتمثّل قضايا الأمة الكبرى.

- تُعدّ القضية الفلسطينية رفيقة كلّ شاعر ملتزم بقضايا الأمة.

- آلام القضية وجراحاتها لازالت قائمة وتبحث عن من يللمم جراحها .

- تتمثّل رؤية الشاعر للقضية الفلسطينية في معالجة كلّ متعلقاتها: الأرض، والهوية والانسان الفلسطيني باختلاف تمثّلاته وأدواره في التفاعل مع قضيتته الأولى استرداد الأرض وامتلاك الحرية من جديد.

- جنوح العشماوي إلى أنّ ملمة جراح القضية لا ولن يكون تحت قبة المؤتمرات بل بجيل مؤمن مجاهد.

هوامش:

¹ عبد الرحمن العشماوي، القدس أنت، العبيكان للنشر (الرياض)، 2003، ص 56 .

² - خالدة سعيد، حركية الابداع ، دراسات في الأدب العربي الحديث، دار العودة (بيروت)، 1979، ص 60.

³ عبد الملك مرتاض، دراسة سيميائية لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد ، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون(الجزائر)، د ت، ص 102.

⁴ ينظر ابن منظور، لسان العرب، دار صادر(بيروت)،2000، ج6، مادة قدس، ص 168، 169 .

⁵ عبد الرحمن العشماوي، القدس أنت، ص 58.

⁶ م ن، ص 61.

⁷ م ن، ، ص 67.

⁸ عبد الرحمن العشماوي، القدس أنت ، ص 84 ص85.

⁹ حبيب مونسي، المكان في الشعر العربي، منشورات اتحاد العرب (دمشق)، 2000، ص 7.

- ¹⁰ عبد الرحمن العشماوي، عندما يئنّ العفاف، العبيكان للنشر(الرياض)، 2003، ص 93.
- ¹¹ م ن، ص ن .
- ¹² م ن، ص 94.
- ¹³ م ن، ص 28.
- ¹⁴ م ن، ص 30.
- ¹⁵ م ن، ص 92.
- ¹⁶ م ن، ص 93.
- ¹⁷ عبد الرحمن العشماوي، ديوان إلى حواء، العبيكان للنشر(الرياض)، 2005، ص 7.
- ¹⁸ عبد الرحمن العشماوي، ديوان على قمم النصر، العبيكان للنشر(الرياض)، 2012، ص 47 .
- ¹⁹ م ن، القصيدة نفسها ص 48 .
- ²⁰ م ن، القصيدة نفسها ص 48 .
- ²¹ عبد الرحمن العشماوي، ديوان عندما يئنّ العفاف، ص 128 .
- ²² م ن، ص 128 ص 129 .
- ²³ م ن، ص 128 .
- ²⁴ م ن، ص 128 .
- ²⁵ عبد الرحمن العشماوي، ديوان على قمم النصر، ص 76 .
- ²⁶ المصدر نفسه، ص 76-77 .
- ²⁷ عبد اللطيف حّي، نسيج التكرار بين الجماليّة والوظيفة في شعر شهداء ديوان الشهيد الربيع بوشامة نموذجاً، مجلة علوم اللغة العربية آدابها، جامعة الوادي، كليّة الآداب واللّغات، العدد الرابع، مارس 2012، ص7.
- ²⁸ عبد الرحمن العشماوي ، ديوان على قمم النصر. ص 14
- ²⁹ عبد الرحمن العشماوي: ديوان على واجهة القرن الخامس عشر، ص 35.
- ³⁰ عبد الرحمن العشماوي: المصدر نفسه، ص36.
- ³¹ عبد الرحمن العشماوي، ديوان إلى أمّتي، العبيكان للنشر(الرياض)، 2007، ص 98.
- ³² عبد الرحمن العشماوي، ديوان القدس أنت، ص 148.